دور التركيبية في فهم و إفهام القرآن الكريم

د. عبد الحميد دباش

جامعة ورقلة

ننطلق في مداخلتنا هذه من التعريف الذي يجعل من التركيبة (syntaxe) إحدى مُرَكّبتي علم النحو (grammaire)، المركبة الثانية له هي الصيغة (morphologie).

فإذا كانت الصيغة بمفهومها العام تقف عند حدود الكلمة، فإن موضوع التركيبة هو الجملة. فالتركيبية تهتم إذن بدراسة بنية الجملة، فتقوم بتعيين الوحدات المدلالة المشكلة لها، و تحديد العلاقات التي تربط هذه الوحدات ببعضها البعض، علاقات لا يكون للجملة كيان لغوي بدونها.

انطلاقا من هذا التعريف، سنحاول معرفة مدى خدمة هذا العلم للقرآن الكريم، أي إلى أي مدى تساهم التركيبية في تفسير القرآن الكريم، مستعملين مصطلح تفسير بمفهومه العام الذي يعني البحث عن معاني آيات القرآن الكريم و نقلها للآخرين.

يبرز دور التركيبية منذ القرون الأولى لنشأة النحو العربي، إذ تُجمع الروايات و تتفق الآراء على أن النحو العربي وُضع أساساً لخدمة القرآن الكريم، قراءة و إقراءاً، فهماً و إفهاماً. و الأخبار التي وصلتنا عن العديد من حالات "اللحن" في القرآن الكريم تمثل الإرهاصات الأولى لعلم النحو.

تورد الروايات مثلاً أن أبا الأسود الدؤلي سمع أحدهم يقرأ الآية " إن الله بريءٌ من المشركين و رسوله" (القرآن، 3/9)، بكسر لام (رسولِه)، فامتعض من ذلك و قرر مباشرة العمل في ما سُمي بعد ذلك بـ "علم النحو". (ينظر مثلاً السيرافي، 16). و " اللحن " عندهم يعني الخروج عن القاعدة النحوية و بالتالي عدم الالتزام بالبنية التركيبية (structure syntaxique) للجملة (1)، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى فساد معناها.

فالبنية التركيبية للجملة تتحدد عندهم إعرابياً بأن " تلتزم الكلمات بحركات تتغير بتغير وظائفها في الجملة " (عفيف الدمشقية، ص. 44)؛ أي أن الحركات الإعرابية التي تلحق أواخر الكلمات تمثل العلاقات المختلفة التي تربط عناصر الجملة ببعضها البعض.

فجملة مثل:

قَتَل داوودُ جالوتَ (القرآن، 251/2)،

تكون بنيتها التركيبية عندهم:

فعل + فاعل (مرفوع)+ مفعول به (منصوب).

هذا ما يعطينا على المستوى الدلالي:

حدث + قائم بالحدث + متلق للحدث،

فيكون بذلك معنى الجملة هو أنه حدثت عملية قتل كان القاتل فيها هو داوود والمقتول هو جالوت. و العبرة هنا تكون بالحركات الاعرابية و ليس بمواضع الوحدات، إذ أن هذه البنية مطابقة لبنية الجملة:

حضر يعقوبَ الموتُ (القرآن، 133/2)،

حيث يبقى المرفوع قائماً بالحدث و إن تأخر، و المنصوب متلقياً للحدث وإن تقدم.

و الملاحظ أن النحاة الأوائل، أمثال أبي الأسود (ت.96) و تلاميذه كانوا قراءً، الأمر الذي يجعلهم بدون شك يستعينون في حلقاتهم العلمية بما لديهم من معارف نحوية في

تفسير القرآن الكريم. هذا بالإضافة إلى أن الكثير من المفسرين كانوا نحاة. و قد تـرك بعضهم مؤلفات نحوية، أمثال الزمخشري و السيوطي و غيرهم.

و يشترط العلماء في المفسر أن يكون متمكناً من علوم العربية، بما في ذلـك النحـو، الذي تعد التركيبية جزءاً منه، لأن " المعاني تختلف باختلاف الإعراب " (م. القطـان، ص. 331). لهذا كثيراً ما نجد المفسرين يلجأون صراحة إلى النحو للوصول إلى معاني الآية القرآنية، وبخاصة ما صعب منها على المتلقي. فهذا الزمخشري مثلاً، في كشـافه، يتناول بالإعراب الآيات:

الم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدًى للمتقين (القرآن، 2/1-3)،

و يتعمق في ذلك، باحثاً عن بنيتهما التركيبية ليصل في النهاية إلى المعنى؛ و هو بذلك يرى أن معنى الجملة لا يمكن إدراكه إلا بمعرفة بنيتها التركيبية. " إن جعلتَ (الم) اسماً للسورة ففي التأليف وجوه:

ـ أن يكون (الم) مبتدأ و (ذلك) مبتدأ ثانياً و (الكتابُ) خبرَه، و الجملةُ خبرَ المبتـدإ الأول. و معناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه مـن الكتـب في مقابلته ناقص و أنه الذي يستأهل أن يسمَّى كتاباً <...>؛

ـ أو أن يكون (الكتابُ) صفة؛ و معناه هو ذلك الكتاب الموعود؛

ـ أو أن يكون (هذه الم) جملةً و (ذلك الكتابُ) جملة أخرى؛

و إن جعلت (الم) بمنزلة الصوت، كان (ذلك) مبتدأً، خبره (الكتـابُ)، أي ذلـك الكتاب المنزَّل هو الكتاب الكامل، أو (الكتابُ) صفة و الخبر ما بعده، أو قَدِّر مبتـدأ محذوفاً، أي هو يعني المؤلَّف من هذه الحروف ذلك الكتاب " (الزمخشري، 1/111-112).

و فهم القرآن و إفهامه لا يقتصر على المفسر المتخصص بل يهم كل من يتعامل معه قراءةً و كتابةً. و كل متعامل مع القرآن الكريم لابد لاجئ إلى بنيات الجمل سواء

عن وعي إرادي أو لا إرادي. إن جمل اللغة تُنتَج و تُفهَم وفق بنيات معيَّنة. و كذا الحال بالنسبة لجمل القرآن الكريم.

فبالإضافة إلى المفسر، نجد الفقيه يلجأ باستمرار إلى التركيبية في استنباط أحكامه الفقهية من نص القرآن الكريم، إذ يساعده ذلك كثيراً في تحقيق غايته، فهماً وإفهاماً، سواء كانت الجمل التي يعتمد عليها بسيطة أو معقدة. ففي الآية:

يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكم و أيديَكم إلى المرافق، و امسحوا برؤوسكم و أرجلَكم إلى الكعبين" (القرآن، 6/5)،

يضطر الفقيه إلى إيجاد علاقة العطف التركيبية التي بين المعطوف المنصوب (أرجلَكم) و المعطوف عليه (أيديَكم) المنصوب هو الآخر، و لو كانا بعيدين عن بعضهما، مفصولين بوحدات كثيرة؛ و النصب عنده دليل على غسل الأرجل و ليس المسح، كما هو الحال مع (رؤوسِكم) المجرور. فعلاقة العطف هنا تحدد له محتوى الرسالة بدقة، مبينةً أن الأمر يتعلق بغسل الأرجل وليس بمسحها.

إذا كان القرآن الكريم من حيث هو خطاب ديني، ينقل إلى متلقين فكراً دقيقاً في شكل رسائل إبلاغية تحملها الوحدات الأساسية التي هي الجمل، و إذا كان القرآن الكريم، من حيث هو نص لغوي، يتشكل من جمل و الجملة هي الوحدة اللغوية الكبرى، فإن الجملة تصبح وحدة تركيبية إبلاغية في آن واحد، أي أن الجملة لها شكل لغوي يمثل الملفوظ الذي يتألف من مجموع العناصر المترابطة داخلها، و لها محتوى دلالي إخباري يمثل الرسالة التي تنظم الخبر (أو المعلومة) المنتقل من المتكلم أو المرسِل إلى المخاطب أو المتلقي. (ينظر ع. ح. دباش، 2003).

هذا يعني أن للجملة بنيتان متضامنتان متداخلتان لا تتطابقان، بنية تركيبية هي الملفوظ، وبنية دلالية إخبارية، هي الرسالة. و هذا التضامن راجع إلى أن " الملفوظ هو القالب

الذي تُصاغ فيه الرسالة " (J.PERROT، ص.95)، باعتبار أن معنى الجملة هو محصلة بنيتها التركيبية.

هذا يجعلنا نعتقد أن الفهم الموضوعي للقرآن الكريم، و بعد ذلك تفسيره، لا يتأتى إلا باستيعاب بنى جمله. و بذلك تصبح التركيبية ملازمة لعلم التفسير و بدونها لا يمكن فهم القرآن الكريم و لا إفهامه للآخرين.

في الوقع، إن الفهم أو التفسير لا يتحقق إلا على مستوى البنيات؛ فنحن عندما نبحث عن المعنى فإننا لا نتوقف عند مدلولات الكلمات منفردة، لأن الكلمة تأخذ معناها في سياقها اللغوي التركيبي، أي في علاقاتها مع غيرها من الكلمات داخل الجملة، و إنما نقوم بالبحث عن المعنى الكلي للجملة، أي المحتوى الإخباري للرسالة؛ وهذا المحتوى تحدده البنية التركيبية للجملة باعتبار أن دلالة الجملة هي محصلة بنيتها التركيبية؛ و بعبارة أخرى " يتم إعداد دلالة الجملة انطلاقاً من التشكيل البنيوي للجملة " (C. TOURATER، 1977، ص.36) لأنها المركّبة الدلالية لا يمكن إلا أن تكون " مركبة تأويلية يتمثل دورها في إعطاء الجملة معنى تبعاً لبنيتها التركيبية " (المرجع نفسه). ثم إن البنية التركيبية للجملة ترتبط من جهة أخرى و تتأثر ببنيتها المُركبية (Structure syntagmatique). هذه الأخيرة تتسلسل فيها العناصر و " تتوالى خطياً [، أي أفقياً،] وفق ترتيب مُعيَّن تتحدد فيه كل وحدة بما يسبقها و ما يلحقها " (ع. ح. دباش، 2003)، بحيث أن أي تحوير يحدث للبنية المركبية ينعكس على البنية التركيبية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تغيير في معنى الجملة. من هنا تكون البنية التركيبية متوسطة بين بنيتها المركبية الخطية و بنيتها الدلالية (structure sémantique) الممثلة " بكافة العناصر المشاركة في معنى الجملة، بارزة كانت أم مستترة " (المرجع فسه)، تمييزٌ يجب احترامه في تعاملنا مع الجمل القرآنية. فجملة مثل: عصى فرعونُ الرسولَ (القرآن، 16/73)،

لها بنية مركبية ممثّلة بتتابع مؤلفاتها، هي:

فعل + مركب اسمي1 + مركب اسمي2

(عصى) (فرعونُ) (الرسولَ)

هذه البنية المركبية تعطينا البنية التركيبية التالية:

مركب فعلي (مسند) + مركب اسمي (مسند إليه)

(عصى...الرسولَ) (فرعونُ)،

حيث ينضم المركب الفعلي المسند (عصى...الرسولَ) (2) إلى المركب الاسمي المسند إليه (فرعونُ) ليشكل معه الجملة. و هما في علاقة تلازمية، أي علاقة اقتضاء تبادلي حيث يتطلب كل منهما الآخر:

(عصى...الرسولَ) (فرعونُ).

و الملاحظ هنا أن المركب الفعلي المسند متقطع إذ أُقحم بداخله المركب الاسمي المسند إليه، و هذا شأن الجمل الفعلية في العربية.

هذه البنية التركيبية تعطينا البنية الإخبارية (3) التالية:

خبر + مخبر عنه

(عصى...الرسولَ) (فرعونُ).

فالاسم (فرعونُ) يمثل على المستوى الإخباري موضوع الإخبار أو العنصر الذي يُحدَّث عنه، و المركب الفعلي يمثل الخبر أو الحديث الذي يقال عن العنصر الآخر.

و إذا كانت هذه البنية الإخبارية نتاجاً للبنية التركيبية، فهي تنقل محتوى الجملة الدلالي إلى المتلقي في شكل رسالة، و في وضعية أو مقام تلفظي مُعيَّن. هذا المحتوى الدلالي هو مجموع مدلولات عناصر الجملة في هذا السياق اللغوي:

حدث + قائم بالحدث + متلق للحدث

(عصى) (فرعونُ) (الرسولَ)

إن جملاً مثل:

الرسولُ عصاه فرعونُ؛

الرسولَ عصاه فرعونُ؛

الرسولَ عصى فرعونُ،

التي أنشئت انطلاقاً من الجملة 5، بتغيير بنيتها المركبية حيث وضعنا المركب الاسمي2 في المقدمة قبل الفعل بعد أن كان بعده، تكون لها بنية مركبية جديدة، أي ترتيب مخالف للسابق:

مركب اسمي2 + فعل + مركب اسمي 1؛

و هذه هي بالضبط البنية المركبية التي للجمل القرآنية من مثل:

الشعراءُ يتبعهم الغاوون (القرآن،224/26)؛

الشعراءَ يتبعهم الغاوون (القرآن،224/26) (هذه قراءة عيسى بن عمرو، ينظر الزمخشري، 133/3)؛

كُلاًّ وعد اللهُ الحسنى (القرآن، 10/57).

إن هذه البنية المركبية الجديدة تقدم فيها المركب الاسمي2 فأدى إلى إيجاد بنية تركيبية مغايرة في الجمل من 5 إلى 10، و هي:

مركب اسمي متطرف + جميلة (4)

هذا يعطينا بنية إخبارية واحدة لها جميعاً:

مخبر عنه + خبر

حيث يمثل المركب الاسمي المتقدم فيها موضوعَ الخبر أو المحدث عنه، و تمثل الجميلةُ الخبرَ أو الحديث الذي يقال عن الأول.

و يمكن أن نلاحظ هنا أن المركب الاسمي المتقدم كان ينتمي إلى المركب الفعلي المسند في الجملة، ذات البنية المركبية العادية (5)، كما كان يمثل فيها جزءاً من الخبر، و

أصبح، على المستوى التركيبي، خارجاً عن الجميلة، غريباً عن المركب الفعلي، هذا من جهة، كما صار يشكل بمفرده المخبر عنه ، على المستوى الإخباري.

و حتى من الناحية التنغيمية، يكون للبنية الأخيرة تنغيم متميز، و هو ما يقوي وجهة نظرنا، " إذ يلاحظ وجود توقف تنغيمي بين المخبر عنه المتقدم و بين [الخبر، أي] الجميلة الموالية التي ينضم إليها. يتضح ذلك من الانقطاع الذي يحدث على مستوى المنحنى التنغيمي للجملة، و ذلك بين المخبر عنه و الجميلة " (ع. ح. دباش، 2003) (في هذا الموضوع يُنظر كذلك: S. AMRANI، ص.203، A.DEBBACHE، 2002، ص.13). و هذا كما يلي:

الشعراء / يتبعهم الغاوون

و هو عكس التنغيم الذي يكون للبنية العادية للجملة 5، حيث لا يوجد انقطاع على مستوى المنحنى التنغيمي:

عصى فرعونُ الرسولَ.

و قد اعتمد المفسرون كثيراً، في عملهم بالمصحف، على علامات الوقف التي تبيِّن الوحدات و حدودها، فتساعد القارئ و المستفهم و المفسر. و هذه العلامات الصوتية شبيهة بما يعرف في الصوتيات الحديثة بالتنغيم. ففصل الكلمة الأولى (الرحمن)، من سورة الرحمن، عما بعدها و جعلها آية دليل على الانقطاع التنغيمي الذي يفصل المخبر عنه (الرحمن) عن الخبر الذي يليه، وهو في صورة جميلة:

الرحمن / علم القرآن

الأمر الذي يعطي للجملة البنية التركيبية التالية:

متطرف + ج،

و هي نفس بنية الجمل من 5 إلى 10 السابقة.

نشير هنا إلى إن المفاهيم التي استعملناها هي من نتاج اللغويات، أو اللسانيات العامة، وهي تصلح للتطبيق على تحليل الجملة العربية، كما لاحظناه، كما تصلح للتطبيق على غيرها من اللغات الأخرى.

و من المعلوم أن اللغويات العامة تبذل مجهودات كبيرة لإيجاد مفاهيم كونية، أو كلية، يمكن استعمالها في تحليل اللغة ، أي لغة طبيعية، نظرا لكونها تأخذ بعين الاعتبار العناصر المشتركة في اللغات الطبيعية.

فهل هذه المفاهيم الكونية تكون مقبولة الاستعمال في التعامل مع القرآن الكريم؟

في الواقع، يصعب، بل يستحيل، الاستغناء عن الإرث اللغوي القديم، الذي هو جزء من أدوات فهم القرآن الكريم و الحضارة الإسلامية كلها، و هو يدخل في كل الدراسات الإسلامية و اللغوية العربية.

غير أنه يمكن، في رأينا، الاستفادة من هذه المفاهيم العامة التي أنتجتها اللغويات الحديثة، كلما دعت الضرورة، و متى كان استعمالها مفيداً، و دون أن يكون لذلك عواقب سيئة. و نعتقد أن هذه المفاهيم العامة مهمة و ذات فائدة كبيرة في ترجمة القرآن الكريم باعتبار أن القرآن موجه إلى كافة الناس، العربي و غير العربي، المسلم وغير المسلم؛ فوجود مفاهيم و بنيات كونية قد يسهل نقل المعنى من العربية إلى اللغات الأجنبية. و في غياب هذه الكونيات يصعب الوصول إلى ترجمات مقبولة.

نريد من وراء هذا أن نقول أن " تحري الدقة في الترجمة يفرض علينا <...> أن نجد لكل جملة من اللغة الأولى جملة توافقها في اللغة الثانية، و هذا التوافق لا يحصل لا على مستوى المحتوى العام و لا على مستوى الشكل؛ بمعنى أن الترجمة لا تتم على مستوى الوحدات المعجمية، لانعدام التطابق المعجمي المطلق بين اللغتين، فلكل لغة تقطيعها

الخاص للواقع، و لا على المستوى الشكلي البحت، لاستحالة التوافق الشكلي، فالعناصر تختلف من حيث طبيعتها من لغة إلى أخرى. إن الترجمة المقبولة لا يمكن أن تتحقق، في رأينا، إلا على مستوى البنيات؛ فنحن عندما نترجم فإننا لا نترجم كلمات مستقلة، لأن الكلمة تأخذ معناها في سياقها اللغوي (أو التركيبي) و لا نترجم أصواتاً لأن لكل لغة صوتميتها (phonogie)، أي نظامها الصوتمي، و لا نترجم أشكالاً لأن لكل لغة صيغيتها (morphologie)، أي نظامها الصيغي، و إنما نقوم بترجمة محتوى الرسالة، و هذا المحتوى تحدده البنية التركيبية (structure syntaxique) للجملة " (عبد الحميد دباش، 2002).

الهوامش:

لا نعني بـ" الجملة " هنا " الآية "؛ فإذا كانت الجملة وحدة لغوية تركيبية، تمتاز باستقلاليتها التركيبية و تمامها الدلالي، فإن الآية وحدة قرآنية تخص الترتيب الوقفي للقرآن الكريم؛ أي أن كلاً منهما تنتمي إلى ميدان مختلف و تمثل مفهوماً مميَّزا و تُعَرَّف وفق معيار خاص. و هما من جهة أخرى غير متطابقتين حجماً إذ قد تكون الجملة أكبر من الآية، كما في:

الرحمن.(القرآن، 1/55)؛

مُدهامتان. (القرآن، 64/55)؛

و قد تحتوي الآية الواحدة على أكثر من جملة، كما في آية الدَّين (القرآن، 282/2).

و مع ذلك فقد تتوازيان بأن تحددا نفس الوحدة دون أن تتطابقا، كما في:

كذَّبت ثمود بالنذر. (23/44).

وقد تكون الآية حروفاً لا وحدات لغوية، كما في:

الم. (القرآن، 1/2)؛

طسم. (1/28).

المُسنَد وظيفة تركيبية تنطبق على كل ما سوى المسند إليه، داخل الجملة، بحيث يكون معه في علاقة تلازمية.

البنية الإخبارية تخص الرسالة، من حيث تُبيِّن كيف يتشكل الإبلاغ الذي تعبر عنه الرسالة.

" الجميلة هي مؤلف من مؤلفات الجملة له بنية الجملة، و من ثم يمكن له أن يشكل بمفرده ملفوظاً " (عبد الحمد دباش، 2002). و لما كان للجميلة نفس بنية الجملة أعطي لهما نفس الرمز ج يبيِّن تشابههما و من ثم انتماءهما إلى الى نفس القسم التركيبي. و قد سمى النحاة القدماء الجميلةَ جملة صغرى. أما المتطرف فهو وظيفة تركيبية توافق المؤلف الذي ينضم إلى ج ليشكل معه ج أكبر. نشير هنا إلى إننا لا نأخذ بعين الاعتبار الحركات الإعرابية التي تلحق المركب اسمي المتقدم، كما فعل النحاة التقليديون و بعض اللغويين المحدثين، و هو ما أدى إلى مشاكل عديدة؛ يكفي أن نحدد المؤلف المتطرف بقولنا أنه ينتمي إلى ج و ينضم إلى ج. نحن نعتقد أن الحركات الإعرابية لا تصلح دائما لتحديد الوظائف التركيبية " لأن الحركة الواحدة يمكن أن تشير إلى أكثر من وظيفة تركيبية، كما أن الوظيفة التركيبية الواحدة يمكن أن تشير إليها أكثر من علامة " (J. LYONS، ص.225. في هذا الموضوع، و بخصوص العربية، ينظر A.DEBBACHE، 1992، ص.59-60)

نعني بالبنية المركبية العادية الترتيب العام الذي يلتزمه عدد كبير من الجمل في اللغة؛ التغيير الذي قد يطرأ على هذا الترتيب، و الذي يكون لعدد أقل من الجمل، نراه ترتيباً جديداً نتج عن الأول، و من ثم نعتبره ترتيباً مُحوَّراً أو مُعدَّلاً و تكون الجملة التي تلتزمه جملة مُعدَّلة أو جملة ذات بنية تركيبية مُعدَّلة أو مُحوَّرة.

المراجع:

-العربية:

القرآن الكريم

دباش (عبد الحميد)، 2002، بنية الجملة و الترجمة، من خلال القرآن الكريم، الملتقى الدولي الثاني حول استراتيجية الترجمة، جامعة وهران، وهران، الجزائر.

دباش (عبد الحميد)، 2003، من الجملة إلى الخطاب، بين البنية التركيبية و البنية الإخبارية، الملتقى الدولي الأول حول " تحليل الخطاب "، جامعة ورقلة، ورقلة، الجزائر.

الدمشقية (عفيف)، 1981، تجديد النحو العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان.

الزمخشري (أبو القاسم جار الله)، د.ت.، الكشاف، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان.

السيرافي، 1955، أخبار النحويين البصريين، تحقيق الزيني و خفاجي، مصطفى البابي، القاهرة، مصر.

القطان (مناع)، 1999، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان.

الأجنبية:

AMRANI (Slimane). 1985. La fonction de sujet, Thèse de doctorat de 3e cycle, Université de Provence, Aix-en-Provence, France.

DEBBACHE (Abdelhamid). 1992. Le prédicat syntaxique en arabe, thèse de doctorat de l'université, Université de Provence, centre d'Aix, Aix-en Provence, France.

DEBBACHE (Abdelhamid). 2002. Les constituants immédiats de la phrase, dans al-athir . Revue des Lettres et Langues, Université de Ouargla, Ouargla, Algérie.

LYONS (John). 1970.Linguistique générale, Traduction de D. ROBINSON, Larousse, Paris, France.

PERROT (Jean), 1978, Fonctions syntaxiques, énonciation, information, dans Bulletin de la Société de Linguistique de Paris, 1/73, Klincksieck, Paris, France.

TOURATIER (Christian), 1977, Comment définir les fonctions syntaxiques, dans Bulletin de la Société de Linguistique de Paris, 1/73, Klincksieck, Paris, France.